

قراءة نقدية لكتاب عسفان وبئرها التاريخية د. يوسف حسن العارف



د. يوسف حسن العارف

أحيي الباحث بدر اللحياني على ما تحلى به من جلد وصبر وإخلاص للمعرفة واستكناه لآلياتها الإجرائية

(1) كثيراً ما مررت بـ/ (عسفان) المدينة/ أو الضاحية القريبة من جدة إلى الشمال الشرقي في طريقي إلى (خليص) أو المدينة المنورة.. فتبدو لي أرضاً زراعية، ومدينة ناشئة عمرانياً وتمدناً حضارياً دالاً على نهضة عصرية منتظرة.

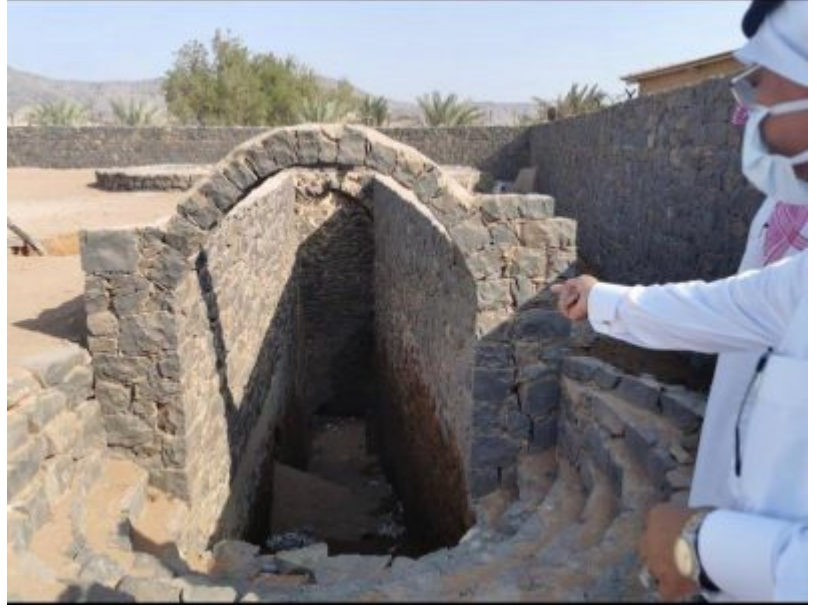
تدهشني قلعتها الأثرية التي جُددت وُزمت وأُضيئت وعُمل حولها حديقة تجذب المتنزهين وأصبحت مستراحاً للمسافرين، ولاهتماماتي التاريخية والآثرية حرصت على زيارتها والصعود إليها برفقة الزميل الأستاذ مشعل الحارثي، ووقفت على معالمها التي تحتاج إلى مقالة خاصة وأعتقد أنني أشرت إليها في إحدى دراساتي القديمة.

(2) واليوم أستعيد هذه الذاكرة المثقوبة وأنا أطلع كتاباً (تاريخ/ أثري) عن هذه الضاحية/ المدينة وقد صدر عام 1442هـ عن وزارة الثقافة، التراث الوطني لمؤلفه بدر ستير اللحياني وقد أهدانيه الزميل أحمد عناية الله الصحفي رئيس اللجنة الثقافية بخليص.

أجمل ماوقفت عليه - كقارئ ناقد - ذلك التمرحل التسلسلي لتاريخ المنطقة منذ العصور القديمة وعبر العصور الوسطية استناداً إلى المصادر التاريخية

والكتاب دراسة أثرية ميدانية لأحد وأهم معالم (عسفان) وهي (بئر التفلة) التي يقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب منها وبارك ماءها بشيء من ريقه نفثه فيها. وتطورات الدراسة لتشمل الآبار المحيطة بها والمنطقة الحاضنة لها وبقايا المنشآت الأثرية حولها.

وبتصفح الكتاب اتضح لنا أنه كتاب منهجي يتبع طرائق وأساليب الكتب الآثرية من حيث إجراءات المسوح الميدانية والتوثيق التصويري والاستعانة بالمقاسات والأبعاد والرسوم الهندسية وجمع العينات الفخارية وتدوين الملحوظات، والمقارنة مع ما تقوله المصادر والمراجع التاريخية حول هذا الموقع إن تراثية كانت أو معاصرة. وهذه قمة المناهج العلمية والدراسات الآثرية والأساليب البحثية وفي ذلك دلالة كبيرة على ما يمتلكه هذا الباحث من جلد وصبر وإخلاص للمعرفة واستكناه لآلياتها الإجرائية.



بدأ الكتاب بفصل تمهيدي أوضح فيه الباحث الجغرافية (العسّانية) وما يتعلق بها تاريخياً. وكان من اللافت للقارئ/ الناقد أن يقف على منافذ معرفية جديدة توصل إليها الباحث لتحديد المكان وحوادث الزمان المتعلقة بهذه المنطقة وأثريتها وتاريخها الممتد في عمق الزمن واستمرارها حتى هذا العصر السعودي الزاهر.

على أن أجمل ماوقفت عليه - كقارئ ناقد - ذلك التمرجل التسلسلي لتاريخ المنطقة منذ العصور القديمة وعبر العصور الوسيطة، وعصور ما قبل الإسلام ثم عسّان في صدر الإسلام وما تلاه من عصور راشدية وأموية وعباسية مستفيداً في ذلك من المصادر التاريخية كالأقدي وابن هشام والفاكهي والأزرقي والطبري والمسعودي وغيرهم وهذه من أمهات كتب التاريخ، وكذلك الاستفادة مما دونه الرحالة الذين كتبوا مشاهداتهم ورحلاتهم إلى هذه المنطقة ومعالمها وكل ذلك في الصفحات [37-52].



الباحث بدر اللحاني

ثم ينتقل المؤلف إلى الجزء الأثري/ الأثاري في هذه المنطقة (عسفان) ويفرد له الفصل الثاني، وعلى الصفحات [55-99] ويركز فيه على البئر المعروفة بـ/ بئر النقلة التي تناقلها الناس والتاريخ على أنها من الآبار التي مر بها رسول الهدى والرحمة وله فيها أثر كريم لكن الباحث هنا يتوسع للبحث عن هذه البئر وغيرها من معالم أثرية كآبار الأخرى والسوق الأثرية، والقلعة العثمانية ودرب الحاج التجاري.

ولكن أجمل ما وقفت عليه هنا، دور المؤلف/ الباحث في مناقشة الرواية المنتشرة عن تفلته رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك البئر فتبارك ماؤها واستشفى به جمع من الناس على مر العصور التاريخية، ولكنه يتوقف عن تصحيح أو تخطئة هذه الرواية ويكتفي بسردها لكنه يختم المسألة [ص 62] بقوله:

“لقد اكتسبت هذه البئر اهتماماً خاصاً بفضل مرور الرسول صلى الله عليه وسلم عدة مرات من خلال الغزوات النبوية أو أثناء أداء الحج والعمرة.. ولا شك أن كل المواطن النبوية هي بالنسبة للمسلمين مواطن عظيمة تستحق التأمل...” وكأنه هنا يتبنى مقولة القائلين بتفلة الرسول الأعظم فيها وبركة مائها!! مع إن لمشايعنا وعلماؤنا في السعودية رأي آخر يعارض هذه المسألة وينفيها ولكنه لم يوردها أو يناقشها وهذا من المآخذ العلمية والموضوعية والمنهجية والبحثية!!

مما يؤخذ على المؤلف أنه لم يُعطِ موضوع المستقبل

السياحي لعسفان حقه رغم أهمية الموضوع في سياق الكتاب

على أنه يشير في الصفحة [VI] إلى أنه تم التواصل مع مدير مكتب الشؤون الإسلامية بمحافظة الجموم وسأله عن الإجراء الشرعي عبر رسائل مكتوبة وموثقة فأجاب المسؤول أنه لا توجد “إشكالات شرعية عن زيارات غير مشروعة لهذه البئر” وهذا - في نظري النقدي - خلاف ما تراه هيئة كبار العلماء ومفتي البلاد السعودية حول هذه البئر الذي وجدته في المدونات الشرعية في الشبكة العنكبوتية!!

ثم ينتقل المؤلف/ الباحث في هذا الفصل إلى الوصف المعماري لهذه البئر ويحدد موقعها من عسفان ويقارن بين ما كانت عليه في الدراسات التاريخية السابقة وبين ما هي عليه الآن، ثم يتحدث عن الآبار الأربعة المحيطة بهذه البئر وعلاقتها ببئر التفلة، ثم يتحدث عن سوق عسفان التاريخي، وقلعة عسفان العثمانية، ثم يشير إلى المعثورات الأثرية من الفخاريات التي تحتاج إلى دراسة تخصصية كما يقول [ص90]. ثم يشير إلى الدرب التجاري.

والجميل في هذا الفصل أن المؤلف لم يكتف بسرد المعلومات الأثرية والتحليلات الهندسية وإنما أشفع ذلك كله بالصور التوضيحية والتوثيقية، فالصورة - كما يقولون - أبلغ تعبير من كثير من الكلام. فنجد صورة البئر، وصورة السوق، وصور الفخاريات المعثور عليها وصور الحوانيت وغيرها مما يمثل أهمية بصريّة/ معلوماتية تفيد القارئ وتؤكد المعلومة!!

وإذا ما وصل القارئ/ الناقد إلى [ص92] يشعر أنه انتهى من الفصل الثاني، ويبحث عن علامة أو عنوان للفصل الثالث فلا يجد!! مع إن المؤلف أشار في المقدمة إلى أن هناك فصل ثالث بعنوان: المستقبل السياحي لعسفان [ص 23] ولكننا لم نجده، وكذلك لم نجده في فهرس الموضوعات ولعله نسيان أو سبق قلم أو خطأ مطبعي ويستدركه الباحث/ المؤلف في الطبعة القادمة إن شاء الله.

ومما يؤكد هذه النتيجة [النقدية] أن المؤلف يبدأ الصفحة [93] بحديث عن الواقع المعاصر لمدينة عسفان وأنها على ملتقى طرق تجارية، وأن الحكومة السعودية اهتمت بها وأن القلعة العثمانية رُمت ويمكن استثمارها سياحياً إلى آخر ذلك مما يشير إلى أن القارئ قد وصل فعلاً إلى الفصل الثالث عن المستقبل السياحي، ولكنه سطور وصفحات قليلة بلا عنوان ولا تفي بالموضوع الكبير والمهم فعلاً في سياق هذا الكتاب.

لا أتفق مع مقولة أنه " لا توجد إشكالات شرعية عن زيارات غير مشروعة لبئر التفلة" لأن ذلك يخالف فتوى كبار العلماء

ومما يلفت النظر النقدي ما جاء في [ص 94-95] إذ يتحدث المؤلف عن العمق التاريخي الإسلامي لمنطقة عسفان!! وأعتقد أن هذا ليس مكانها وإنما يمكن إضافتها إلى الجزء التاريخي في أول الكتاب في الصفحات [37-48].

وأخيراً نصل إلى الخاتمة [ص 103-] والتوصيات [105-106] ثم قائمة المصادر والمراجع ص ص [109-107] ثم فهرس الصور ص ص [110-113].

وفي ذلك كله أسجل إعجابي بما جاء من توصيات أمل من المسؤولين عن السياحة والآثار ومديري البلديات والشؤون الدينية الاضطلاع بتنفيذها والاهتمام بها كونها أتت من رجل خبير ونتيجة عمل مسحي وآثاري وتاريخي جدير بالتبني وعدم التقصير!!

وعلى أية حال: فالكتاب الذي تحدثنا عنه ودرسناه نقدياً وتعريفياً جدير بالاعتناء والإفادة مما فيه من معلومات فهو يتحدث عن جزء غال من بلادنا (محافظة عسفان) وما فيها من آثار حربية بالتطوير والتنمية لسياحة محلية جاذبة ومفيدة علمياً وتاريخياً واقتصادياً.

شكراً للكاتب/ المؤلف/ الباحث. وشكراً لمن أهداني هذا الكتاب الذي استمتعت بقراءته والمداخلة معه والتعليق عليه.

والحمد لله رب العالمين

جدة 23-24/8/1442هـ

[رابط تحميل الكتاب : عسفان وبئرها التاريخية](#)

وبئرها التاريخية

عسفان



بدر ستير اللحياني